ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

رحلة محمد بن علي السنوسي وتأثيراتها الفكرية والحضارية مغربا ومشرقا

The Journey of Muhammad ibn Ali al-Sanusi and Its Intellectual and Civilizational Impact in Both the Maghreb and the Mashriq.

نبيل لزعر
جامعة أحمد زبانة غليزان
almkademnabil@hotmail.fr
شرف الدين ولد نورين
جامعة أحمد زبانة غليزان
norinecharaf@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2023/12/16 تاريخ القبول: 2024/03/18 تاريخ النشر: 2024/06/01

ملخص:

تميزت رحلة الشيخ محمد بن علي السنوسي بالتنقل بين الحواضر الإسلامية الكبرى في المشرق والمغرب، حيث نهل من علوم الأزهر في مصر، واطّلع على الفكر الصوفي والفقهي في الحجاز، ثم عاد إلى المغرب الأوسط (الجزائر) والمغرب الأقصى لنشر دعوته الإصلاحية. أسس الطريقة السنوسية التي جمعت بين التصوف السني والعقيدة الأشعرية والفقه المالكي، مما ساهم في توحيد التصورات الدينية في مناطق واسعة من شمال أفريقيا. كان لهذه الرحلة أثر فكري عميق، حيث دعا السنوسي إلى تجديد الدين بالعودة إلى الكتاب والسنة ونبذ البدع، مع التمسك بالتصوف السني المعتدل. حضاريًا، ساهمت حركته في نشر التعليم، وتأسيس الزوايا، وتعزيز الروح الجهادية ضد الاستعمار، لا سيما في ليبيا. كما كانت حركته جسرًا للتواصل بين المشرق والمغرب، وأثرت في البنى الثقافية والدينية في كلا الاتجاهين.

الكلمات المفتاحية: محمد بن علي السنوسي، التأثيرات الفكرية، التأثيرات الحضارية، المغرب، المشرق.

Abstract:

Sheikh Muhammad ibn Ali al-Sanusi's travels across the Islamic world helped shape his reformist vision. Studying in Egypt and the Hijaz, then returning to North Africa, he founded the Sanusi order, which combined Sunni Sufism, Ash'ari theology, and Maliki law. His movement promoted religious renewal, education, and resistance to colonialism, leaving a lasting impact on both the Maghreb and the Islamic East.

Keywords: Muhammad ibn Ali al-Sanusi, Intellectual Influences, Civilizational Influences, the Maghreb, the Mashriq.

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

المقدمة:

أنجبت الجزائر عبر تاريخها الأزلي عديد النخب العلمية التي داع صيتها الأوطان وساهمت في تنوير عقول الأبدان، ومن الشخصيات الفكرية التي ميزت الجزائر العثمانية محمد بن علي السنوسي (1787-1859) ، وهي الفترة التي تزامنت مع أواخر العهد العثماني وبداية التوطن الاستعماري، فلم تقتصر شخصيته على فكرها الوطني بل تعدته إلى الصيت الدولي وفق ما تداولته الكتابات المحلية والأجنبية، برغم ما عرف به العهد العثماني من إهمال للجانب التعليمي وترك حرية التصرف فيه للمؤسسات الدينية التقليدية والتركيز على الجانب العسكري للدود عن الجزائر والحفاظ على كيانها السياسي، غير أننا لما نجد من أمثال الشيخ ابن السنوسي الذي تلقى تكوينه القاعدي بالجزائر في هذه الفترة يفتح المجال للعديد من التساؤلات لاستقراء الحياة العلمية بها من أجل الوقوف على حقيقة النشاط التعليمي والذي ميزه الطابع الديني نظرا لطبيعة العلوم المدرسة والمرتكزة على كتاب الله وسنة رسوله ومن هنا نطرح الإشكالية التالية: كيف استطاع محمد بن علي السنوسي أن يؤثر بعلمه في بلاد المغرب والمشرق الإسلاميين ؟

1)- التعريف بالشيخ السنوسي:

- **مولده ونشأته:** هو الشيخ محمد بن علي السنوسي بن العربي بن محمد بن عبد القادر بن شهيدة بن حم بن يوسف بن عبد الله بن خطاب بن علي بن يحيى بن راشد بن أحمد المرابط بن منداس بن عبد القوي بن عبد الرحمن بن يوسف بن زيان بن زين العابدين بن يوسف بن حسن بن إدريس بن سعيد بن يعقوب بن داود بن حمزة بن علي بن عمران بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب الهاشمي القريشي [1].

ولد صبيحة يوم الاثنين 12 ربيع الأول 1202 هـ الموافق ل 21 ديسمبر 1787م، وكانت ولادته بناحية وادي ميثا بمنداس الواقعة على ضفة وادي الشلف [2] بمنطقة الواسطة [3].

نشأ محمد بن علي السنوسي في أسرته التي اشتهرت بالإضافة إلى عراقة النسب بالعلم والدين والصلاح، فقد كان أبناء البيت السنوسي كلهم منتسبين إلى العلم، وكان والده السيد علي يجمع إلى العلم والصلاح والفروسية والرماية، وقد توفي ولم يتجاوز عمر ابنه محمد السنتين فكفلته عمته السيدة فاطمة التي كانت من فضليات أهل زمانها متبحرة في العلوم منقطعة للتدريس يحضر مواعظها الرجال، فاعتنت بالطفل وتولت بنفسها تربيته وتثقيفه وأشغلته بعلم العقائد والتوحيد بعد حفظ القرآن ولم يتجاوز عمره سبع سنوات [4].

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

اهتمت السيدة فاطمة بابن أخيها الذي أظهر حبا عظيما لتحصيل العلوم، فأخذ يطلب العلوم من شيخ مستغانم، وغيرها من البلاد المجاورة لها، ومن أشهر شيوخه في تلك المرحلة ممن أخد عنهم القرآن الكريم والقراءات السبع محمد بن قمعت الطهراوي زوج عمته، وابنه عبد القادر، وكانا عالمين جليلين صالحين، وابن عمه الشيخ محمد السنوسي الذي تولاها بعد وفاة عمته عام 1209 وعمره لم يتجاوز السابعة، وأتم على ابن عمه حفظ القرآن الكريم برواياته السبع مع علم رسم الخط للمصحف والضبط وقرأ عليه الرسالات الآتية: مورد الضمآن، المصباح، العقيلية، الندى، الجزرية، الهداية المرضية في القراءات المكية، جزر الأماني للشاطبي، وبعد أن أتم ما يلزمه من لوازم حفظ القرآن وإتقانه شرع ابن عمه الشيخ محمد السنوسي في تعليمه العلوم العربية ثم الدينية بالتدريج وتربيته على العمل بما تعلم وكان يزوده بتراجم العلماء والقادة والفقهاء وتوفي ابن عمه عام 1219 هـ فجلس محمد بن علي عند شيوخ من مستغانم وهم : محي الدين بن شهبلة، ومحمد بن أبي زوينة، وعبد القادر بن عمور ، ومحمد القندوز، ومحمد بن عبد الله ، وأحمد الطبولي الطرابلسي، وكلهم من جهابذة العلماء في زمانهم، ومكث يطلب العلم في مستغانم سنتين كاملتين[5].

في أوائل 1221 هـ خرج من مستغانم إلى بلدة مازونة ومكث بها سنة واحدة وتتلمذ على مجموعة من المشايخ هم: محمد بن علي بن أبي طالب، أبو رأس المعسكري، وأبو المهل أبو زوينة [6]، وبعد ذلك رحل إلى مدينة تلمسان و أقام بها ما يقارب السنة وتتلمذ على كبار شيوخها [7].

- فكره واتجاهه : كان السنوسي يميل إلى الانزواء والانفراد يمضي وقته في التفكير فيما يرى حوله من أحوال الإسلام، وكان شديد الشعور بضرورة العمل من أجل إحياء الملة الإسلامية وتوحيد الصفوف في العالم الإسلامي للنهوض بالدين الحنيف نهضة صحيحة قوية، حدث ذات مرة أن وجده بعض الشيوخ جالسا فوق كتيب من الرمال تبدو عليه دلائل التفكير العميق، فلما استوضحوه السبب في ذلك، كان جوابه أنه إنما يفكر في حال العالم الإسلامي الذي لا يعدو عن كونه قطيعا من الغنم لا راعي له على الرغم من وجود سلاطينه وأمرائه ومشايخ طرقه وعلمائه، فمع أن هناك عددا كبيرا من المرشدين وعلماء الدين الموجودين في كل مكان، فإن العالم الإسلامي لا يزال مفتقرا أشد الافتقار إلى مرشد حقيقي يكون هدفه سوى العالم الإسلامي أجمع إلا غاية واحدة ونحو غرض واحد[8]، وقد برز اهتمامه بالحركات الإصلاحية والوقوف في وجه الحكام ضد انحرافهم، والوقوف معهم لتحقيق الإصلاح [9].

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

لقد كان تفكيره في حال الأمة مبكرا، واجتهد في البحث عن العلل والأسباب التي أدت إلى التدهور والضعف المخيف في كيان الأمة، وذكر أن من أسباب هذا الضياع فقدان القيادة الرشيدة، وغياب العلماء الربانيين وانعدام الغيرة الذاتية، والانشغال بالخلافات التي فرقتهم شيعا وجماعات، ولذلك اهتم بالبحث عن عوامل النهوض، وقد وصل إلى حقيقة مهمة ألا وهي أهمية العلم في نهوض الأفراد والجماعات والأمم، لأن العلم ظهير الإيمان، وأساس العمل الصالح، ودليل العبادة [10].

يبدو أن الأوضاع المختلفة التي أحاطت به دفعته إلى التفكير في حاله وحال المسلمين، بدأ يشعر نتيجة لتفكيره الدائب أن عليه دورا يجب عليه أن يقوم به إزاء المسلمين، بل إنه صار يشعر بأنه مقاده ومأمور بالقيام بعمله في الإصلاح [11].

أما معالم ودلائل تأثر الشيخ السنوسي بالمدارس الفقهية في الجزائر، نستنتجها من خلال فكره ومؤلفاته التي ضمنها آراءه في الفكر والتصوف، إذ كان يحرص على الجمع بين الاتجاه الفقهي والاتجاه الصوفي.

لقد توضحت ثلاث اتجاهات فكرية في شخصية الشيخ السنوسي الإصلاحية والعلمية.

- أولها اهتمامه بالدراسة الفقهية، وقد برز هذا الاهتمام عنده في نشأته الأولى في مستغانم ثم في مازونة وظهر اهتمامه بالفقه حتى آخر حياته في دعوته إلى الاجتهاد رغم كونه مالكيا.

- وثانيها الصوفية التي وجدت بذورها في نشأته في مستغانم، حينما كان يتردد على حلقات الذكر ويميل إلى الانفراد والتأمل، ثم تعمق في دراستها في فاس أين وجد الجو الصوفي يطغى على حياة الناس وما كان لها من نفوذ قوي في جامع القرويين، ولقد استمر اهتمام السنوسي بالصوفية حتى آخر حياته وأسس طريقة حملت اسمه[12].

- وثالثها الإصلاح لاهتمام الشيخ السنوسي إصلاح أحوال المسلمين، ومن مميزات الفكر السنوسي الإصلاحي أنه فكر متفتح لا ينبذ الآخر ويقدر سنن الاختلاف، ولهذا كانت الطريقة السنوسية متفتحة على جميع الطرق، أي أن المريد يمكن أن يكون سنوسيا وفي ذات الوقت ثيجانيا أو قادريا أو غيره، كما عرف الفكر السنوسي بأنه فكر توحيدي ينبذ الخلافات بين المسلمين والتعصب، ويدعو إلى التسامح ليس فقط مع غيره مما يشيع في العالم الإسلامي من مناهج ورؤى بل ومع أهل الديانات السماوية الأخرى، فالزوايا السنوسية كانت دوما مفتوحة في كل المدن التي تواجدت فيها وهي تستقبل على حد بعض المنصفين حتى اليهود والمسيحيين [13].

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

2)- رحلته العلمية ومو اقفه الإصلاحية :

- **إلى فاس:** في سنة 1220 هـ / 1805 م اتجه محمد بن علي السنوسي من مستغانم إلى فاس بالمغرب الأقصى، وكانت فاس ساعتها تمثل إحدى الحواضر الإسلامية وعاصمة للدولة العلوية وقبلة لكثير من العلماء، إذ يوجد بها جامع القرويين [14]، وكان ذهابه إليها بهدف التحصيل العلمي فبعد أن فرغ من الدراسة على أيدي علماء بلده طمح في الاستزادة وفكر في الارتحال، وربما هناك ظروف جعلته يعجل بهذا الأمر، ولعل أهمها حالة عدم الاستقرار التي كانت تمر بها منطقة وهران وتلمسان ومستغانم [15].

وفي القرويين تعرف ابن السنوسي على أكابر علماء المغرب وأخذ منهم، وقد كان يتميز برغبة قوية في الاطلاع فتنقل بين حلقات العلم الواحدة تلو الأخرى، يأخذ من العلماء من مختلف العلوم التي كانت تدرس وتعطى فيها الإجازات[16].

طوال مدة مكوثه بفاس والتي قاربت سبع سنوات، أتم تحصيله العلمي، ولعل من أهم المشايخ الذين تتلمذ على أيديهم شيخ الطريقة الشادلية مولاي العربي بن أحمد الدرقاوي، وكانت رحلة محمد بن علي السنوسي إلى حاضرة فاس فرصة ثمينة بحق لمعرفة الطرق الصوفية إلى جانب التفقه في علوم الدين، وقد أصبح بعد تطلعه وتفرسه مدرسا بالجامع الكبير[17]، وأقبل الناس عليه لما رأوه من صلاحه وتقواه وفهمه الدقيق لعلوم الشريعة، وروحه الفياضة، وعقله المتنور، وفكره الناضج، فخشيت حكومة السلطان سليمان من نفوذه وبدأت العراقيل، ووجد لا فائدة ترجى من بقائه بفاس، وقرر الارتحال عنها [18]، لأن كل ما حدث هو تنبه حكومة السلطان إلى دعوته إلى العدل والخير وجمع كلمة المسلمين وتطهير النفوس والابتعاد عن المنكر، وأخذت تلمس الخطر من جانبها خشية أن تنقلب الدعوة الدينية إلى أخرى سياسية قد تعصف بالسلطة على غرار ما يحدث مند أزمنة بعيدة، حيث كانت تبتدئ الحكومات في هذه الديار أولا بالمشيخة والإرشاد ثم تنتهي بالحكم والسلطان، وعلى ذلك شددت الحكومة في مراقبة السيد فوجد أن لا فائدة من بقائه في فاس [19].

- **عبوره المغرب** : يبدو أن السبب الذي جعله يترك فاس وهو رغبة السيد في العمل من أجل إصلاح العالم الإسلامي، سرعان ماجعله يرى أيضا فائدة التنقل من الأغواط إلى غيرها من المراكز الصالحة لبث الدعوة ونشر الموعظة، فارتحل من هذه المدينة إلى مسعد ثم إلى جلفة، ومنها إلى بوسعادة فأقام بها بضعة شهور، حدث في أثنائها مجيء الحملة الفرنسية إلى الجزائر ثم سقوط مدينة الجزائر في أيدي الاستعمار الفرنسي، فأراد الرجوع إلى وطنه عله يستطيع أن يدفع عنه الضرر وأن يقاوم المحتلين، ولكنه سرعان ما عدل عن ذلك عندما جاءه في رؤيا مشهورة أن من الخير والواجب أن يستمر في سيره صوب المشرق [20].

ردمد 0000-0000 ISSN الإيداع القانوني: 0000- 0000 Depot Légal

غادر ابن السنوسي الجزائر ودخل تونس وقابس وجامع الزيتونة واستفاد من شيوخها واستفاد الطلاب منه وطلب منه التدريس ولبى الطلب، ثم واصل سيره ودخل طرابلس الغرب وكان ذلك في حكم يوسف القرمانلي الذي كان مستقلا عن الدولة العثمانية، فأكرم نزله ومكث في مدينة طرابلس وضواحيها مدة للوعظ والإرشاد والتعليم، وسافر إلى زلطين للدعوة، واستطاع أن يكسب لدعوته أنصارا من مصراتة وزلطين وطرابلس [21].

- **دخوله القاهرة:** بعد مغادرته طرابلس قصد مصر التي أقام فيها حوالي ثلاث سنوات، دخل القاهرة التي يوجد بها جامع الأزهر الذي يمثل هو الآخر إحدى الحواضر الإسلامية فاتجه إليه ولاحظ بأم عينيه الوضعية التي أصبح عليها هذا الصرح العلمي إذ أنه لم يعد يؤدي رسالته العلمية التي كان يؤديها من قبل، وخاب أمله في نوعية الدراسة الموجودة من حيث أن هناك نقصا ملحوظا في النشاط الروحي والدراسة الصوفية، خاصة في ظل حكم محمد علي باشا الذي كان في هذه الفترة مشدودا إلى التطور العلمي الذي يشهده العالم الغربي، وعليه فإن ابن السنوسي لم يبق طويلا في مصر، وربما كانت الشكوك تحوم حوله، حتى أن بعض علماء الأزهر اتهموه بالابتداع في الدين [22]، فخرج من مصر إلى الحجاز.

كانت زيارته لمصر قد رسخت في نفسه ضعف دولة الخلافة، وقد وصل إلى قناعة مهمة في الإصلاح والنهوض، وقد عمل في تلك الفترة على إكمال فكره ورأيه وظهر بهذه النتيجة التي تقول أنه في حاجة ملحة إلى تحصيل علوم كثيرة غير العلوم العقلية والنقلية التي استفادها من فاس، واقتنع أن تفوق أوروبا هو وليد العلم الذي سبق لهم التفوق في مجال الصناعة والفنون الحربية العلمية، وقد لمس ذلك في المشاريع التي أشرفت عليها فرنسا وبريطانيا في مصر في زمن محمد علي باشا، والنتيجة الثانية أن من أسباب عدم تقدم الإسلام وعدم اتحاده، اختلاف المذاهب وكثرة الطرق والحكم الفردي الاستبدادي، وابتعاد الأمة عن روح الإسلام المتمثل في كتاب الله وسنة رسوله [23].

- **إلى الحجاز:** وصل محمد بن علي السنوسي إلى مكة المكرمة سنة 1240 هـ / 1825 م، وكانت ساعتها تخضع لسلطة محمد علي باشا حاكم مصر الذي قضى على نفوذ الوهابيين، وفي مكة راح السنوسي يتعرف على العلماء، ويأخذ عنهم لاسيما وأن هؤلاء العلماء يمثلون مختلف المذاهب والمدارس الفكرية ففيهم الصوفي والمالكي وفيهم السلفي الوهابي مما أتاح له فرصة الاطلاع على هذه الاتجاهات، ولعل من بين أهم العلماء الدين تعرف عليهم الشيخ السنوسي وتأثر بهم غاية التأخر وأخذ عنهم أبو سليمان عبد الحفيظ العجمي مفتي مكة وقاضيها، وأبو حفص عمر بن عبد الرسول العطار، وكذلك أحمد بن محمد الدجاني، غير أن أهم شخصية شدت انتباهه ووجد فيها ضالته المنشودة هي شخصية أحمد بن إدريس الملقب

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

بأبي العباس العرائشي (وهو من أصل مغربي) وقد اشتهر بالصلاح والتعمق في الدراسة الفقهية والطرق الصوفية، وقد جمع بين الاتجاهين الصوفي والسلفي، فلازمه السنوسي ودرس عليه الحديث والسنة، وكان ابن ادريس يجلبه كثيرا ويتضرس فيه الخير والصلاح، وأثناء تواجده بمكة تزوج ابن السنوسي زوجته الثانية خديجة الحبشية بإيعاز من شيخه أحمد بن إدريس [24].

أخد ابن السنوسي عن أستاذه عددا من الطرق الصوفية، ودرس عليه الحديث والسنة، واستعان به في الارتفاع والعلو، ويبدو أنه بعد أن استراحت نفس ابن السنوسي لما حصل من العلم بدأ يفكر في ضرورة الدعوة للإصلاح ونشر أفكاره في مكة، ذلك أن طبيعته كانت طبيعة فرد من النخبة لا يرتاح إلا بمحاولة الإصلاح، لذلك نرى ابن السنوسي بعد فترة من إقامته مع أستاذه يأخذ الإذن من ابن إدريس لإعطاء العهود وتلقين الذكر، فأذن له فأدن له وأمره أن يدل الخلق على الله وبجذب الطالبين إلى الله [25].

تبدأ جهود الشيخ السنوسي في الدعوة سنة 1253 هـ الموافق لسنة 1837 م وهو تاريخ بناء أول زاوية سنوسية على جبل أبي قبيس المشرف على مكة، ويعتبر مؤرخو السنوسية أنها أول زاوية أسسها ابن السنوسي بعد اعتزامه القيام بالدعوة واختياره لنظام الزوايا كوسيلة لنشر تعليمه وأذكاره، استطاع أن يجمع خلالها من التلاميذ والأتباع المريدين أعداد كثيرة، مما حرك ضده عداوة شيوخ مكة الذين كانوا يخالفونه وينتقدونه لإقامة الحجة على أن الاجتهاد لم يغلق بابه، زد على ذلك أن السلطات الحكومية بدأت تشعر بخطورته، وخطورة الدعوة التي يحملها من جراء التفاف الناس حوله، فلم يلبث الشيخ السنوسي أن غادر مكة إلى بلاد المغرب مرورا بمصر بعد أن اكتملت شخصيته الدعوية وإحساسه بمشاكل عصره، فأصبحت له طريقته الخاصة وصار له اجتهاده الخاص في المذهب المالكي و إيمانه بفتح باب الاجتهاد لمن تتوفر فيه شروط الاجتهاد.

- **من الحجاز إلى المغرب :** ترك السنوسي مكة سنة 1840 بعد أن ولى على زاويته أحد أتباعه وقصد المدينة المنورة ثم الينبوع ثم سار إلى مصر برا مع عدد من أتباعه فتوقفوا بالبولاق بالقاهرة، وبعدها انتقل إلى الفيوم زمنها إلى سيوة التي أقام بها تسعة أشهر، ووصل طرابلس بحرا في منتصف سنة 1841 وبها أكرم الوالي التركي علي أنقر باشا وفادته، ومن طرابلس توجه السنوسي إلى قابس بحرا وكان ذلك سنة 1841 [27]، فواصل ابن السنوسي رحلته برا من سيوة إلى جالوا ثم أوجلة وكان برفقته الشيخ عمر بوحوا، ومحمد الشفيع، والمهدي الفيلالي، ثم توجه إلى برقة ونزل على عائلة اللواطي من العواقير، ففرحوا وقاموا بإكرامه ورفقائه ورافقوه إلى منتجع قبيلة المغاربة، فنزل على الشيخ علي لطيوش فأكرم ابن السنوسي

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

ورافقه إلى محل يسمى الهيشة مابين سرت ومصراتة وهناك قابله آل المنتصر ومعهم أعيان مصراتة فدخل معهم إليها، وبعد مدة قليلة واصل سيره إلى بلدة زليتن ومنها إلى طرابلس ونزل في بيت أحمد المنتصر وترك عنده بعض الإخوان وولى سفره إلى زوارة ودخل حدود تونس[28]، بعدما كان عازما على الذهاب إلى الجزائر، لكنه غير رأيه والسبب في ذلك توجسه من الإجراءات التي اتخذها الفرنسيون والذين يبدوا أنهم شعروا بخطورة دعوته بعد أن وصلت أخباره إليهم عن طريق عيونهم في المنطقة وربما تقارير الجاسوس ليون روش [29] وتقرر أن لا يواصل شخصيا سيره، وكلف محمد بن صادق وحمله بعض الأموال والأسلحة لتوصيلها للأمير عبد القادر [30]، فقرر السيد عندئذ الخروج من قابس بكل سرعة، فغادرها فجأة إلى طرابلس هو وابن الحاج المغربي وعبد القادر المكاوي، وكان وصوله إلى طرابلس في رمضان 1257 (سبتمبر 1831)، وكان حكم طرابلس يومئذ علي باشا عشقر الذي وصلته أنباء مشوهة عن دعوة السنوسي وحركته التي قيل على لسان رواة الحاكم العثماني أنها ترمي إلى ما يبعث عن قلق السلطات العثمانية، فاجتمع الوالي برفقته في مجلس علمي وقف فيه على حقيقته فاعتذر له [32].

نشط الشيخ السنوسي في الدعة خلال إقامته بطرابلس، فتحج في جدب عدد من الناس إليه انضموا إلى مريديه من أهل مصر وبلاد المغرب والسودان والحجاز وبهم عزم السنوسي على بدء الدعوة في ليبيا [33].

واصل ابن السنوسي سيره إلى سرت فوجد أعيان وشيوخ ووجهاء برقة من العواقير والمغاربة وأهل الجبل الأخضر ومدينة بنغازي بانتظاره فرحبوا بسيادته ورافقوه في رحلته [34].ثم جاء ليستقر بالجبل الأخضر بليبيا، لذا أنشأ أول زاوية بمنطقة الجغبوب سنة 1271 هـ في الجنوب الشرقي من بنغازي وكانت هذه المنطقة مكان نزاع وصراع بين القبائل، ولم يعد هناك بينهم أي نوع من العداوة، وأصبحت مكان إصلاح وسلام[35].

3)- الآثار الفكرية والحضارية لرحلة محمد بن علي السنوسي :

لقد جاءت آراؤه الفقهية في وقت تحجرت فيه أساليب التفكير في العالم الإسلامي، فنادى بفتح باب الاجتهاد، فخالف بذلك مذهب الإمام وهو مالكي في بعض مسائل أركان الصلاة، ومنها تلك التي دونها في كتاب " المسائل العشر...." كونه كان يقبض في صلاته ويقنت بعد الركوع ويقصر في صلاته أثناء السفر، وقد تبعه في ذلك مريدوه، وهذا ما جعله يواجه معارضة قوية من مشايخ المالكية في الأزهر بالخصوص لأنه خالف ابن القاسم أحد تلاميذ مالك في السدل، كان الشيخ مالكيا لكن لما توسعت علومه في القرآن والسنة رأى أن الاجتهاد واجب، فصار يعمل بما ترجح عنده الأدلة [36].

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

لم يكن اجتهاد السنوسي يقتصر على ناحية من نواحي الفقه والتفكير بل تعداه لدراسة مذاهب أهل السنة الأخرى، وعيا منه بضرورة الإصلاح في العالم الإسلامي تقتضي دراسة كل المذاهب الشائعة فيه وضمها والاجتهاد فيها [37]، وأيقن ابن السنوسي وإخوانه من بعده أن المسلمين لا يكون لهم شأن ولا عز ولا نصر ولا فلاح في الدنيا ولا نجاة في الآخرة إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم على مستوى الأفراد والأسر والجماعات والقبائل ومن تم على مستوى الدولة.

أما في التصوف فقد رد على من ينكر الجمع بين الفقه والتصوف وسار بفكره في اتجاه المجددين في الإسلام فاستطاع أن يجمع بين أمرين اثنين هما :

- التحرر من الجمود والجبرية وتحليل العقيدة وتعميق رسالة التوحيد.
- تنقية الطرق الصوفية من مفاهيمها المنحرفة ودفعها عن العمل البعيد عن الاعتقاد بفكرة الحلول والاتحاد بين الخالق والمخلوقات.

لقد قرن السنوسي الفكر بالعمل فأسس الطريقة والزاوية، وقد ساعده هذا الجمع على النجاح في نشأة حركته والتي كانت مرآة عاكسة لأفكاره التي يؤمن بها وفي مقدمتها وجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة [38].

استطاع ابن السنوسي بعقليته التنظيمية أن يطور مفهوم الزوايا بحيث أصبحت تمثل النواة الأولى لمجتمع تحكمه سلطة وعليه واجبات اجتماعية واقتصادية وسياسية ودعوية وجهادية [39]، وجعل من الزوايا خلايا حية تمتد منها الحياة الصالحة إلى سائر جسم الأمة الإسلامية، فأصبحت مراكز تربية وتهذيب وتعليم، وإيقاظ للعاطفة الدينية السليمة، وتوجيه الحياة العاملة توجها سديدا، فأصبحت مراكز إصلاح إنساني متكامل من الناحية الدينية والعقلية والاجتماعية والاقتصادية [40].

لقد أجمع مؤرخي الشيخ السنوسي ببغضه التعصب المذهبي، ومناداته بتطهير العقيدة من البدع التي ألصقت بها، فكان بذلك في طليعة زعماء الإصلاح والتجديد في عصره مؤمنا بأن التعصب المذهبي من العوامل الداخلية التي تحول دون اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستدمار مدركا لذلك بأن الفكر الإسلامي يساير التطور ولا يعاديه وهذا إحساس بضرورة الإصلاح الاجتماعي [41]، كمل أيقن أنه بتحقيق الأخوة بين القبائل وأتباع الحركة تتحقق وحدة الصف، وقد أورثهم هذه الأخوة شعورا عميقا ومحبة وودا واحتراما ما فيما بينهم [42].

لقد كان الهدف الأسمى والأول الذي رسمه السنوسي لإنجاح حركته الإصلاحية هو تكوين الإنسان الصالح لا الصوفي الغبي، فكسبت هذه الحركة المقيدة بالسنة أتباعا كثيرين،

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

ولم ترفضها الحركة الوهابية في الحجاز ولم تهدم زواياها في مدن الحجاز كمكة والمدينة بالخصوص [43].

وفي ميدان المقاومة العسكرية ثبتت الصلة المباشرة بين عدة ثورات عرفتها الجزائر ضد الاستدمار مثل ثورة محمد بن عبد الله الشريف وثورات أولاد سيد الشيخ المتتالية، أولاد سيدي نابل وانتفاضات الجنوب وغيرها، وأكد " روش " العلاقة التي كانت تربط الشيخ السنوسي بالشريف محمد بن عبد الله مقدما على السنوسية برفع راية الثورة بعد الأمير عبد القادر، ومنحه مبلغا ماليا معتبرا وحمله رسائل وتوصيات ملحة لتلاميذه في طرابلس وجنوب الجزائر [44].

أما تأثير الشيخ محمد السنوسي في العالم الإسلامي فتبرز معالمه من خلال تأسيس الزوايا السنوسية والتي عبارة عن مراكز إصلاحية تمثل الأداة العقلية لتطبيق الأفكار السنوسية في التكوين والتنشئة، وجلها أسست في عهد الشيخ محمد بن علي السنوسي وكانت البداية في المشرق، ثم تزايد انتشارها ليعم المغرب العربي وإفريقيا و من أبرزها وأشهرها نذكر:

*** في المشرق العربي:**

- الزوايا السنوسية بالحجاز: وكان أولها زاوية جبل أبي قبيس بمكة المكرمة، والتي أسسها الشيخ السنوسي بماله الخاص، ووضع مسؤولين عليها يتكلفون بإدارتها عند مغادرته لها بين الحين والآخر، وقد أوقف عليها أملاكا كان قد اشتراها بنفسه، وظلت هذه الزاوية قائمة، لم يتعرض لها آل سعود بسوء، بل أصدر الملك عبد العزيز مرسوما تحت رقم:117 مؤرخا في 3صفر1346هـ نص على احترام الزوايا السنوسية وأملاكها، ومن بين الزوايا الموجودة بالحجاز أيضا هناك الزاوية السنوسية بجدة، والزاوية السنوسية بالطائف، والزاوية السنوسية بمنى، وأخرى ببدر، أما زاوية المدينة المنورة فتم تأسيسها سنة 1266.

- الزوايا السنوسية بمصر: وهي كثيرة نذكر بعضها: زاوية سيوه، زاوية الزيتون، زاوية الواحات البحرية،زاوية الداخلة، زاوية الفيوم، وأم الرخم...

*** في المغرب العربي:**

- الزوايا السنوسية في الجزائر: وهي عديدة ومنها: زاوية مستغانم، زاوية بوسعادة، زاوية مسعد، زاوية الأغواط، زاوية بن تكوك، زاوية أفركان، زاوية قورارة.

- الزوايا السنوسية بليبيا: وأهمها: الزاوية البيضاء ببرقة، زاوتي مارة ودرنة ببرقة أيضا، زاوية الجوف بالكفرة، زاويتي قفطة وشحات ببرقة، زاوية بنغازي، زاوية مرزق بفزان، وزاويتي طبقة ومزدة بطرابلس...وزاوية الجغبوب التي تحول إليها السنوسي في آخر حياته، كان بها جامع

ردمد 0000–0000 ISSN الإيداع القانوني: 0000– 0000 Depot Légal

ومدرسة للعلوم الدينية والرياضيات والتاريخ والجغرافيا، وصارت بعد ذلك عاصمة روحية وثقافية للسنوسية.

- الزوايا السنوسية بالمغرب الأقصى: ومنها زاوية العباد بواحة فقيق، وزاوية فاس وزاوية تطوان، ثم زاوية طنجة.

- الزوايا السنوسية بتونس: هناك زوايا تم إقامتها بالجريد، وتكون في مناطق صحراوية جزائرية أو تونسية وأهمها: الزاوية السنوسية بالجريد، فالزوايا كانت عديدة لكن أهدافها كانت متحدة وموحدة، تسعى للدعوة و الاطلاع والتعليم[45].

خاتمة :

يتضح من خلال هذا أن لمجمد بن علي السنوسي تأثير فكري وحضاري على بلاد المغرب والمشرق من خلال مواقفه الإصلاحية المستمدة من فكره الدعوي التنويري الذي اكتسبه في بلده الجزائر ووسعه بالحواضر العلمية العريقة، فمن خلال تتبع مسيرته العلمية يتبن تشبعه بالفكر المعتدل والمنفتح ما جعل الجميع يجتمع حوله، خاصة وأنه كان رافضا لكل النظم البالية وداعيا إلى التجديد والإصلاح، فالزوايا السنوسية التي وضع منهجها وقواعدها والتي عرفت انتشارا واسعا إلا خير دليل على البعد الدولي الإنساني والعملي لشخصيته والتي مازالت بحاجة لدراسات معمقة، فرغم عدم تمكنه من العودة للجزائر إلا أنه ساهم في تدعيم عديد الثورات المسلحة بالجزائر وربطها روحيا بعديد الأقطار العربية والإفريقية وفق نظام متكامل .

الهوامش :

- (1) : الصلابي محمد علي ، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا ، الإمام محمد بن علي السنوسي ومنهجه في التأسيس،ج1 ، مكتبة التابعين ، القاهرة ، 2001 ، ص 22 .
- (2) : صالح بوسليم وميلود ميسوم ، " الحركة السنوسية وامتدادها عبر الصحراء الكبرى ، دراسة تاريخية " ، مجلة الواحات للبحوث والدراسات ، العدد 15 ، جامعة غرداية ، 2001 ، ص 17 .
- (3) : الواسطة : هي مدينة مستغانم الواقعة بين الجزائر ووهران ، ينظر : ميلود بلعالية ، الشيخ محمد بن علي السنوسي ، مجلة عصور ، العدد 8 ، 9 سبتمبر وديسمبر 2007 ، ص 137.
- (4) : سعود سعدي ، " البعد الجهادي المغاربي للطريقة السنوسية (1931/1842) ، رسالة ماجستير في التاريخ المعاصر (أوروبا مغرب) ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر ، 2010/2009 ، ص 09.
- (5) : الصلابي محمد علي ، المرجع السابق ، ص 23.

- (6) : عبد القادر بن علي ، الفوائد الجليلة في تاريخ العائلة السنوسية ، مطبعة دار الجزائر العربية ، دمشق ، 1966 ، ص 23.
- (7) : الصلابي محمد علي ، المرجع السابق ، ص 23.
- (8) : محمد فؤاد شكري ، السنوسية دين ودولة ، دار الفكر العربي ، 1948 ، ص 12 .
- (9) : صالح بوسليم وميلود ميسوم ، المرجع السابق ، ص 17.
- (10) : الصلابي محمد علي ، المرجع السابق ، ص 24-25.
- (11) : أحمد صدقي الدجاني ، الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر ، ط 1 ، دار لبنان للطباعة والنشر ، بيروت ، 1967 ، ص 41.
- (12) : فطيمة مطهري ، " رحلة السنوسي الإصلاحية والدعوية إلى الحجاز ودورها في التواصل بين الجزائر وباقي الأقاليم المغاربية والإفريقية ، الملتقى الوطني الثاني حول الإيالات المغاربية العثمانية في الكتابات المحلية والأجنبية مابين القرنين 16 و19 م ، جامعة وهران ، 27 أفريل 2017.
- (13) : arnand robert ,au sujet du senoussine , in (la quinzaine coloniale) du 10 novembre 1907 , p 942 -944.
- (14) : يعتبر أقدم جامعة في العالم ، فقد تأسس في القرن الثالث الهجري (245 هـ /852 م) في عهد الأدارسة ، وقامت ببنائه سيدة مسلمة اسمها فاطمة بنت محمد عبد الله الفهري ، وأخذ الجامع اسمه من تخفيف اسم القيروانيين الذي كان يطلق على القسم الغربي من مدينة فاس حيث بني المسجد ، وذلك لأنه كان مقر المهاجرين من القيروان ، للمزيد ينظر : أحمد صدقي الدجاني ، المرجع السابق ، ص 46.
- (15) : سعود دحدي ، المرجع السابق ، ص 10.
- (16) : أحمد صدقي الدجاني ، المرجع السابق ، ص 47.
- (17) : صالح بوسليم ، ميلود ميسوم ،المرجع السابق ، ص 17.
- (18) : سميرة بوزبوجة، الأبعاد الحضارية والثقافية في ليبيا (الطريقة السنوسية نموذجا) ، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، جامعة سيدي بلعباس ، 2011/2010 ، ص57.
- (19) : سعود دحدي ، المرجع السابق ، ص 12.
- (20) : محمد فؤاد شكري ، المرجع السابق ، ص 14-15.
- (21) : الصلابي محمد علي ، المرجع السابق ، ص33-34.
- (22) : سعود دحدي ، المرجع السابق ، ص 14.

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

- (23) : سميرة بوزبوجة ، المرجع السابق ، ص 68.
- (24) : سعود دحدي ، المرجع السابق ، ص 14.
- (25) : أحمد صدقي الدجاني ، المرجع السابق ، ص 70.
- (26) : سميرة بوزبوجة ، المرجع السابق ، ص 71-72.
- (27) : محمد الأشهب ، برقة العربية بين الأمس واليوم ، ط 1 ، مطبعة الهواري ، مصر ، 1947 ، ص 139.
- (28) : الصلابي محمد علي ، المرجع السابق ، ص47.
- (29) : أسندت له مهمة نيل فتوى من كبار علماء الجزائر في تونس لغرض تحريم محاربة الجزائريين للمسيحيين ، وذلك لضرب مقاومة الأمير عبد القادر.
- (30) : عبد القادر بن علي ، المصدر السابق ، ص 50.
- (31) : محمد فؤاد شكري ، المرجع السابق ، ص 29.
- (32) : أحمد صدقي الدجاني ، المرجع السابق ، ص 81.
- (33) : سميرة بوزبوجة ، المرجع السابق ، ص 78.
- (34) : عبد القادر بن علي ، المصدر السابق ، ص 53.
- (35) : صالح بوسليم ، ميلود ميسوم ،المرجع السابق ، ص 18.
- (36) : عبد الحي الكتاني ، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم ، ج 1 ، طبعة 1347 هـ ، فاس ، ص 377.
- (37) : محمد الأشهب ، المصدر السابق ، ص 135.
- (38) : فطيمة مطهري ، المرجع السابق ، ص 10-11.
- (39) : الصلابي محمد علي ، المرجع السابق ، ص96.
- (40) : المرجع نفسه ، ص 98.
- (41) : الجندي ، تراجم الأعلام المعاصرة في الإسلام ، ط1 ، القاهرة ، 1970 ، ص 404.
- (42) : سعود دحدي ، المرجع السابق ، ص 21.
- (43) : ميلود بلعالية ، المرجع السابق ، ص 135.
- (44) : إبراهيم محمود ، العلامة محمد بن علي السنوسي مجتهدا ومجاهدا 1788-1859 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2009 ، ص 139.
- (45) : فطيمة مطهري ، المرجع السابق ، ص13.